﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤﴾ [الأعراف: 194]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تأكيدُ ما سبقَ مِـــن الـبـيـان وتعليلُ ما ذكَرَ من عجزِ الأوثان

هذه الجملةُ ورَدَت على سبيلِ التَّوكيدِ لِما قَبلَها في انتفاءِ كَونِ هذه الأصنامِ قادرةً على شيءٍ مِن نَفعٍ أو ضَرٍّ[1]، وأيضًا ورَدَت بيانًا وتعليلًا لِجُملةِ ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾، أي: لأنَّهم عبادٌ مخلوقونَ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَدۡعُونَ﴾: مِنَ الدُّعاءِ بمعنى العبادةِ[3]، وأصلُ الدُّعاءِ أَنْ تُمِيلَ الشَّيءَ إليك بصوتٍ وكلام يكون منك، تقول: دَعوْتُ أدعو دُعاءً[4]، ومعنى (دُعاؤهم إيَّاها): عبادتُهم لها، وتسميتُهم الأصنامَ آلهةً[5].

2) ﴿عِبَادٌ﴾: جمع عبدٍ، والعينُ والباءُ والدَّالُ تدورُ أكثرُ تصاريفِها على لِينٍ وَذُلٍّ[6]، ومِنْهُ قولُهم: طريقٌ مُعَبَّدٌ، أي: مُذَلَّلٌ مِن كثرةِ وطءِ الأقدامِ عَلَيْهِ، قال طَرَفَةُ:

تُبَارِي عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتْبَعَتْ *** وَظِيفًا وَظِيفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ[7]

والمعنى هُنا: مُذلَّلون ومُسخَّرون لا يستطيعون دفْعَ شيءٍ عن أنفسِهم[8].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 249/5.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 220/9 - 221.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (دعا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: 279/2.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 342/7، والنيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 352/1.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عبد).
(7) مهدي محمد ناصر الدِّين، شرح ديوان طرفة، ص: 20.
(8) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4524/8.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأوثـــــانُ مـخـلـوقـاتٌ مُسَخَّرَةٌ مملوكةٌ كحال عابديها من المخلوقاتِ في الذُّلِّ والضَّعْفِ

إنَّ الذين تعبدونهم - أيُّها المشركون - من دون اللّهِ هم مخلوقون للّهِ، مملوكون خاضعون له، كما أنَّكم مملوكون لربِّكم، فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنَّها تستحقُّ من العبادة شيئًا، فادعوهم، فليستجيبوا لكم، فإنِ استجابوا لكم، وحصَّلوا مطلوبَكم، وإلَّا تبيَّن أنَّكم كاذبون مُفترون على اللّهِ أعظمَ الفرية[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الموقعُ البيانيُّ لهذه الآية من الآيات السَّابقة:

استـئـنـافٌ مُـخـاطَـبـةِ المشركين بتحقير شأن أصنامهم

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتقل به إلى مُخاطبةِ المُشركينَ في تحقير شأن أصنامِهم عندهم، أي: إنَّ هذه الأصنامَ مخلوقةٌ مُحدثة، إذ هي أجسامٌ وأجرام، فهي متعبَّدةٌ، أي: مُتَمَلَّكة[2]، ولذلك صُدِّرَ بِحَرفِ التَّوكيدِ؛ لأنَّ المُشركينَ يُنكِرونَ مساواةَ الأصنامِ إيَّاهم في العبوديَّة[3]، فكرَّر بهذا الاستئنافِ تبكيتَهم باتِّباعِهم في أسلوبٍ آخرَ أوضحَ ممَّا قبلَهُ في تبيين النَّقائصِ والتَّنبيهِ على المعايب مُلْجِىءٍ إلى الاعتراف أو التَّصريح بالعناد أو الجنون، فقال مؤكِّدًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾، أي: - أيُّها المشركون - دعاءَ عبادةٍ ملازمين لذلك[4].

بلاغةُ تتابعِ المؤكِّدات في الآية:

التَّـوكـيـدُ على انـتـفـاءِ كَـوْنِ الأصـنـامِ قـادرةً عـلـى شيءٍ من نفعٍ أو ضُرٍّ

هذه الجملةُ على سبيلِ التَّوكيد لِمَا قبلَها في انتفاء كون هذه الأصنام قادرةً على شيءٍ من نفعٍ أو ضُرٍّ[5]، ولهذا صدِّرت بأمِّ أدوات التَّوكيد

(1) مجموعة من المؤلفين، التفسير الميسّر: 175/1، ومجموعة من المؤلفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 239.
(2) ابن عطية الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 488/2، وأبو منصور الثعالبي، الجواهر الحسان: 105/3.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 220/9 - 221.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 194/8.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 249/5.

﴿إِنَّ﴾، ثمَّ بالجملة الاسميَّة، وبالموصول الاسميِّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الواقع اسمًا لها، والذي احتاجَ إلى جملةِ صلةِ الموصولِ، والتي فيها ضميرٌ يعود عليه، وبذلك يكون قد تكرَّرَ ذكرُه مرَّتيْن، وإنَّما ساغَ ذلك كُلُّه؛ لأنَّهم لَمَّا اعتقدوا ألوهيَّتها؛ لَزِمَهُم كونُها حيَّةً عاقلة، وإنَّ كانت في الواقع خلاف ذلك، ولكن وردت الألفاظُ على مُقتضى اعتقادِهم[1].

فائدةُ التَّعريفِ بالاسم الموصولِ وموقع صِلَتِهِ:

المُراد بـ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: الأصنامُ، فتعريفُها بالموصول لذمِّها ولتَنبيه المُخاطَبِين على خطأِ رأيهم في دعائِهم إيَّاها من دون اللهِ، في حين هي ليست أهلًا لذلك، فهذا الموصولُ كالموصولِ في قول الشَّاعر:

تنبيهُ المُخاطَبين على خطئِهم في دعاء الأَصْنامِ من دون الله

إنَّ الذين تَرَوْنَهُمْ إِخْوانَكُمْ *** يَشْفِي غَلِيلَ صُدُورِهِمْ أَنْ تُصْرَعُوا[2]

نكتةُ إطلاقِ الدُّعاء على العبادة:

الدُّعاءُ هو النِّداء لدفع الضُّرِّ وجلب النَّفع الذي يُوَجَّه إلى من يعتقدُ الدَّاعي أنَّ له سُلطانًا يمكِّنه أن يجيبَهُ إلى ما طلبه، إمَّا بذاتِهِ وإما بحملِهِ الرَّبَّ الخالقَ على ذلك[3].

التَّنبيهُ على عِظَمِ شأن الدُّعاء، والإشارةُ إلى عدم صِحَّةِ عبادة من لا يَصِحُّ أن يُدعى

والدُّعاءُ هو العبادة[4]، ورُكنها الأعظم، فلا يَصِحُّ توحيدُ أحدٍ للّه إلَّا بدعائِهِ وحدَهُ، وعَدَمِ دعاءِ أحدٍ معه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجنّ: 18]، والمفسِّرون يقولون: إنَّ الدُّعاءَ في

(1) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 512/3.

(2) البَيْت لعبدة بن الطَّبِيب من قصيدة من الكَامِل يعظ فِيهَا بنيه ويوصيهم بِمَا هُوَ المرضي شرعًا، يُنظر: أبو الفتح العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: 100/1، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 220/9.

(3) المراغي، تفسير المراغي: 143/9.

(4) أخرج أبو داود والترمذي من حديث النعمان ابن بشير أن النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة»، ثمَّ قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: 60]. يُنظر: الترمذي، سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب تفسير سورة البقرة، الحديث رقم: (2969)، وأبو داود، سنن أبي داود، أبواب فضائل القرآن، باب الدعاء، الحديث رقم: (1479).

مثلِ هذه الآياتِ معناهُ العبادة، من باب تسمية الكُلِّ باسم الجُزْءِ، فصاروا يُفسِّرون ﴿تَدْعُونَ﴾ تعبُدون[1]، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: 60] فسمَّى الدُّعاءَ عبادةً تنبيهًا على عِظَمِ شأنِه، وإشَارَةً إلى أنَّه لا تَصِحُّ عبادةُ من ليس فيه قابليَّةٌ أن يُدعى، والحاصل أنَّ الدُّعاء يُلازم المعبودَ[2]، فالدُّعاء بمعنى العِبادة تسميةٌ لها بجزئها[3].

معنى (من) في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

بـيـانُ سـفـولِ رُتبتِهم ونـزولِ مـرتـبـتِـهـم من أن يكونوا أهلًا للدُّعاء

﴿مِن﴾ ابتدائيَّةٌ، فلمَّا كان دعاؤهم لهم، إنَّما هو على سبيل الإشراك؛ قال مُشيرًا إلى سفول رُتْبَتِهم بإثبات الجارِّ: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4].

معنى (دون) وإضافتها إلى اسم الجلالة:

بيانُ حقارةِ هذهِ الأصنامِ من أَنْ تُسَوَّى باللهِ العظيم

(دون): نقيضُ فوق، وهو ظرفٌ يَدُلُّ على التَّقصيرِ عن الغاية[5]، وصفُوا بِهِ مَا لَيْسَ برفيعٍ[6]، فَقَالُوا: رجلٌ دونٌ، وثوبٌ دُونٌ، وهَذَا دُونك فِي التَّحْقِيرِ، ويقالُ: دُونَك زَيْدٌ فِي المنْزِلَةِ والقُرْبِ[7]، فهذه الأصنامُ أخسُّ منزلةً، وأحقرُ قدرًا من أن تُدعى، أو تُسوَّى باللّه العظيم الذي له صفاتُ الكمالِ والعظمة والجلال[8].

بلاغةُ المجازِ في وصف معبوداتِهم الباطلةِ بالعباد:

بـيـانُ كـونـهـا مملوكةً مُسخَّرةً مذلَّلةً لا مالكة

أُطْلِقَ على هذه المعبودات الباطلة عبادًا من حيثُ إنَّها مَملوكةٌ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 440/9.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 134/5.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (دون).
(6) ابن سيده، المخصص: 234/4.
(7) الزبيدي، تاج العروس: (دون).
(8) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.

مُسَخَّرة[1]، والعبدُ أصله المملوك، ضِدُّ الحُرِّ، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ [البقرة: 178]، وقد أُطْلِقَ في اللِّسان على المخلوق، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: 93][2].

فمن حيثُ إنَّها مَملوكةٌ مُسخَّرة، أُطلق عليها لفظُ العباد، فهذا بيانٌ جامعٌ في اسْتِعَارَةِ لفظ العبد للصَّنم حيث شبَّه الصَّنَمَ بالعبد المملوكِ المسخَّرِ للمولى، فاسْتُعِيرَ لفظُ المُشبَّهِ بجامع المملوكيَّةِ والمُسَخَّريَّةِ[3].

ويحتمل أن تكون استعارةُ لفظ العبد على سبيل التَّهكُّم[4]، قال صاحب الكَشَّاف: "قوله: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ استهزاءٌ بهم، أي: قُصارى أمرِهم أن يكونوا أحياءً عُقلاءَ، فإنْ ثَبَتَ ذلك؛ فهم عبادٌ أمثالكم لا تَفَاضُلَ بينكم، ثمَّ أبطلَ أن يكونوا عبادًا أمثالَهم، فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: 195]"[5].

والأظهرُ أن يكونَ إطلاقُ العبادِ عليهم مجازًا بعلاقة الإطلاقِ عن التَّقييد روعي في حسنهِ المشاكَلَةُ التَّقْديريَّةُ؛ لأنَّه لما ماثلَهم بالمُخاطَبين في المخلوقيَّةِ، وكان المخاطَبون عبادَ اللهِ أطلقَ العبادَ على مماثليهم مشاكلةً[6]، فهو مجازٌ مرسلٌ بعلاقة الإطلاق والتَّقييد؛ لأَنَّ العبادَ خَلْقٌ يعقلون، فجُرِّد عن وصف العقلِ - وهو قيده الأصلي - وأُطلِقَ على مُطْلَقِ المخلوق.

بيانُ تنزيلِهم لها منزلةَ العُقلاءِ وصفًا واعتقادًا، والتَّهكُّم بهم في ذلك

سِرُّ وصف الأصنام بضمائر العُقلاء:

قد يسأل سائلٌ كيف يحسنُ وصفُها بأنَّها عبادٌ مع أنَّها جمادات؟ وجوابُه من وجوهٍ: الأوَّل: أنَّ المشركين لمَّا ادَّعوا أنَّها تَضُرُّ وتنفعُ، وجبَ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 46/3.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 221/9.
(3) ابن التمجيد، حاشيته على البيضاوي: 575/8.
(4) ابن التمجيد، حاشيته على البيضاوي: 575/8.
(5) الزمخشري، الكشاف: 189/2.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 221/9.

أن يعتقدوا فيها كونها عاقلةً فاهمة، فلا جرم وَردت هذه الألفاظُ على وفقِ معتقداتِهم، ولذلك قال: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾، ولم يقل: فادعوهم؛ فليستجبْنَ لكم، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، ولم يقل: التي، فعبَّرَ عنها بضمائرِ العُقَلاءِ؛ لأنَّ الكُفَّارَ يَصِفونَها بصفاتِ مَن هو خيرٌ مِن مُطلَقِ العُقَلاءِ، وأنَّها مَعبوداتٌ، وأنَّها تشفَعُ، وتُقرِّبُ إلى اللهِ زُلفَى، فبهذا الاعتبارِ أجرى عليها ضمائرَ العُقَلاءِ[1].

الثَّاني: أنَّ هذا اللَّغوَ أُورِدَ في معرضِ الاستهزاءِ بهم، أي: قُصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عُقلاء، فإن ثبت ذلك؛ فهم عبادٌ أمثالكم، ولا فضل لهم عليكم، فلِمَ جعلتم أنفسَكم عبيدًا، وجعلتموها آلهة وأربابًا؟[2].

ويحتمل أنَّهم لمَّا نحتوها بصور الأناسيِّ، ولمَّا كان يُطلقُ العبدُ على النَّاس، والمشهورُ أنَّه لا يُطلَق إلا على المخلوقاتِ من الآدميِّين، فيكون إطلاقُ العباد على الأصنام كإطلاق ضَمِير جمع العقلاء عليها بناءً على الشَّائع في استعمال العرب يومئذٍ من الإطلاق[3].

نُكْتَةُ النَّكرةِ بقوله: ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾:

بيانُ وجهِ المماثلةِ في التَّسخيرِ والمملوكيَّةِ دون الحيوانيَّةِ مبالغةٌ في نفي استحقاقِها للعبادة

تنكيرُ ﴿عِبَادٌ﴾ لتقليل شأن هذه المعبوداتِ وذمِّها، ووصفَها بأنَّها ﴿أَمۡثَالُكُمۡ﴾، أي: إنَّها مملوكةٌ أمثالكم، وقيل: أمثالكم في التَّسخير، أي: إنَّهم مسخَّرون مذلَّلون لما أريد منهم[4]، فوجهُ الشَّبه المُماثلةُ بينكم من جهةِ كونِهَا مملوكةً له تَعَالَى، ومسخَّرةً لا من جهةِ الحيوانيّة فضلًا عن الإنْسَانيَّة[5]، فهم أمثالُكم في العجزِ عن كلِّ شيءٍ لا سيَّما عمَّا وقعَ بهِ التَّحدِّي من معارضةِ القرآن وغيرِها، وأنتم تزيدون عليها بالحياةِ والعقل، والمعبودُ لا يَصِحُّ أن يكون مثل

(1) الشنقيطي، العذب النمير: 425/4.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 431/15.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 221/9، والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 46/3.
(4) البغوي، تفسير البغوي: 259/2.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 575/8.

العابدِ، فكيف إذا كان دونه[1]؛ ولمَّا كانوا لا يُسَلِّمونَ أنَّهم أمثالهم، فلا يَسْتَحِقُّون عبادتَكم، كما لا يَسْتَحِقُّ بعضُكم عبادةَ بعضٍ[2].

وهذه المماثلةُ إنَّما تظهرُ فيمن يُدْعَى من دونِ اللهِ تعالى مِنَ الملائكةِ أو الأنبياءِ أو الصُّلحاء، دونَ ما اتُّخِذَ لهم تذكيرًا بهم من التَّماثيل أو القبور أو الأصنام، وقد صار بعضُ هذه المذكِّرات يُقصَد لذاته، جهلًا بما كانت اتُّخِذَتْ لأَجلِه، وفي هذه الحالة تدخل في المماثلةِ بطريقةِ تنزيلها منزلةَ ما وُضِعَتْ لأجله، كأنَّه يقول: إنَّ قُصارى أمرِها أن تكونَ مِنَ الأحياء العُقلاءِ أمثالِكم، فكيف ترفعونَها عن هذهِ المثليَّةِ إلى مقام الرُّبوبيَّة[3]؟

معنى الفاءِ في ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ ودلالتُها:

الفاء فصيحةٌ، أي: إذا صحَّ ذلك، وهو لم يَصِحَّ إلَّا في اعتقادهم وعُرفهم، فادعوهم[4]، في رفْعِ ما يصيبكم من ضَرٍّ، أو في جلب ما أنتم في حاجةٍ إليه من نفْعٍ[5]، وهذه الفاءُ تُشْبِهُ عمل الفاء الواقعة في جواب الشَّرط؛ لأنَّ نظْمَ الجملةِ مشعرٌ بالشرطيَّةِ، والتَّقديرُ: إن كانوا آلهةً؛ فادعوهم، وفرَّع على المماثلة أَمْرَ التَّعجيزِ بقوله: ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ باعتبار ما تفرَّع عليه من قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ﴾ لكم المُضَمَّنِ إجابَةَ الأصنام إيَّاهم؛ لأنَّ نفسَ الدُّعاء مُمكنٌ، ولكنَّ استجابتَهُ لهم ليست ممكنةً، فإذا دَعَوْهُم، فلم يستجيبوا لهم؛ تَبَيَّنَ عجْزُ الآلهةِ عن الاستجابةِ لهم[6]، فسبَّبَ عن ذلك أمرهم بدعائِهم لبيان دعوى المثليَّة بل الدُّونيَّة، فقال: ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ أي: إلى شيءٍ مِنَ الأشياء[7].

التَّسبيبُ عن اعتقادِهم في الأصنام أمرهم بدعائهم لبيان دعوى المثليَّةِ بل الدُّونيَّة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 46/3.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 527/9.
(4) درويش، عراب القرآن الكريم وبيانه: 512/3.
(5) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 456/5.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 221/9.
(7) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.

دلالةُ الأمر في ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾:

تحقيقُ مضمونِ التَّبكيت والتَّعجيز

﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾ أمرُ تحدٍّ خاطبَ اللهُ ﷻ به المشركين للتَّعجيز والتبكيت، فإنَّ الدُّعاء وإن كان ممكنًا في نفسِه، لكن مع استجابتِهم محالٌ[1]، فهو أمرٌ لتحقيق مَضمونِ ما قَبلَه بتَعجيزِهم وتَبكيتِهم[2].

فإنَّ شركاءكم لن يستجيبوا لدعائِكم مهما دعوتموهم، إذ هم غير مُمكَّنين من ذلك ولو رغبوا فيه.

أمَّا الأوثانُ والأصنام؛ فأمرُها ظاهر؛ لأنَّها قِطَعٌ جوامدُ مِن عناصرِ الأرض، وأمَّا المرموزُ إليهم بالأوثان والأصنام، فإنْ كانوا من شياطين الجنّ، فَإنَّ الله مانعُهم بالقهر عن أن يكون لهم سلطان، إلَّا على مَن اتَّبعهم من الغاوين، فلا يزيدون عابديهم إلَّا توريطًا في الشَّرِّ ورهقًا في العمل، ولا ينفعونهم في نصرٍ، ولا تأييد ضدَّ المؤمنين، ولا يغيِّرون فيهم من قضاء الله شيئًا، ولا يجلبون لهم نفعًا، ولا يدفعون عنهم ضرًّا.

وإن كانوا ملائكةً، فإنَّهم يمقتون عابديهم، ولا يعصون اللهَ ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون من ربِّهم، وإن كانوا موتى؛ فقد انقطعت كلُّ أعمالهم، والصَّالحون منهم يتبرَّؤون من عابديهم يوم الدِّين.

معنى الفاءِ في ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾:

تخلُّف الاستجابةِ من المعبودات البَاطلةِ وسرعتها من الإله الحقِّ

قولُه: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾ الفاءُ عاطفةٌ[3]، ولمَّا كان الإلهُ الحقُّ يجيب وليَّه عند التَّحدي من غير تخلُّف، أشار إلى ذلك بالرَّبط بالفاء، فقال: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾، أي: يُوجِدُوا لكم إجابةً بيِّنةً في الإتيان بسورة تماثلُ شيئًا من القرآن أو في أيِّ شيءٍ مِنَ المنافع[4]، فإنِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 575/8.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 306/3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 222/9.
(3) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 512/3.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.

استجابوا لكم، وحصَّلوا مطلوبَكم، وإلا تَبَيَّنَ أنَّكم كاذبون في هذه الدَّعوى، مُفترون على اللّه أعظمَ الفرية[1].

دلالةُ الأمر في: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ﴾:

التَّحدي والتَّعجيزُ للأصنام وداعيها

الأمرُ في قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ﴾ أمرُ تعجيز للأصنام، وهو أمرُ الغائب، فإنَّ طريق أمر الغائب هو الأمر، ومعنى توجيهِ أمر الغائب السَّامعِ: أنَّه مأمورٌ بأن يبلِّغ الأمرَ للغائب، وهذا أيضًا كنايةٌ عن عَجْزِ الأصنام عن الاستجابة لعجزها عن تلقِّي التَّبليغ من عَبَدَتِها[2].

فهؤلاءِ الذين يعبدهم المشركون من دونِ اللّهِ جمادًا كانوا أم شياطين أم ملائكة، هم خَلقٌ مثلهم، مخلوقون للّهِ، لا يملكون لأنفسِهم نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يكون منهم لغيرِهم نفعٌ أو ضرٌّ؟ وها هو ذا الواقعُ يكشف عن هذه الحقيقة، ويقرُّرها؛ فليدع المشركون آلهتهم التي يعبدونها من دون اللّهِ، ثم لينظروا ماذا يبلغ هذا الدُّعاء منهم؟ هل يسمعون؟ وإذا سمعوا، هل يعقلون؟ وإذا عقلوا، هل يقدرون على تحقيق المطلوب منهم؟ وكيف وهم لا يستطيعون لأنفسِهم جلْبَ خيرٍ، أو دفْعَ ضرٍّ؟[3] فصيغة ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ﴾ صيغة الأمر، ومعناه التَّعجيزُ[4].

معنى اللَّام في ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ﴾:

تأكيدُ كمالِ التَّحدِّي والتَّعجيز

اللَّام في ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ﴾ لامُ الأمر[5]، على معنى التَّعجيز ومَوضِعُها أنَّ رَبَّ العِزَّة يَطْلُبُ إليهم أن يأمروهم ليستجيبوا، أي: إنَّ الأمرَ بالاستجابة ليس من اللّه تعالى؛ لأنَّ اللّه تعالى لا يطلب الاستجابةَ ممَّن لا يجيبُ، بل الأمرُ يكون من غيره ممَّن يَعْبُدُها،

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص: 353.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 221/9.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 540/5.
(4) إسماعيل حقي، روح البيان: 295/3.
(5) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 512/3.

وليكونَ التَّعجيز والتَّحدِّي كاملًا، وبهذا التَّخريجِ يكون طلبُ الاستجابةِ من المشركين لا مِنَ الله تعالى[1]، وإنَّما ورد هذا الأمرُ في معرض الاستهزاء بالمشركين[2].

معنى (إنْ) ودلالةُ التَّعبيرِ بالشَّرطيَّة والغرضُ منها:

ثبوتُ عجزِ المشركين عن إظهارِ دعاءِ للأصنامِ تَعْقُبُه الاستجابة

لَمَّا كان المقامُ محتاجًا إلى مزيد توبيخ وإلهابٍ؛ قدَّم منه ما ذكر، ثم زاد في الإلهاب، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ﴾، أي: جبلَّة وطبعًا[3]، فتَبَيَّن بكانَ واسمِها وخبرها وجوابِ الشَّرط عجزُ الآلهة عن الاستجابةِ لهم، وعَجْزُ المُشركينَ عن تحصيلها مع حرصهم على تحصيلها لإنهاضِ حُجَّتهم، فمآلُ ظهورِ عجز الأصنام عن الاستجابةِ لعبادها إلى إثباتِ عجزِ المشركين عن نهوض حجَّتهم لتلازم العجزين، قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: 14]، وبهذا يظهرُ أن أمرَ التَّعجيزِ كنايةٌ عن ثبوتِ عَجزِ الأصنامِ عن إجابتِهم، وعجزِ المشركين عن إظهارِ دعاءٍ للأصنام تَعْقُبُهُ الاستجابة[4].

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرط:

انتهاءُ التَّحدِّي بالتَّعجيز والعجزِ في إثباتِ صِدقِهم في دعواهم

أي: إن كنتم صادقين في زعمِكم أنَّهم قادرون على ما تعجزون عنه بقواكم البشريَّةِ من نفعٍ أو ضرٍّ، وفي دعوى أنَّهم آلهةٌ، فإنَّ رتبةَ الإلهِ تقتضي ذلك[5]، فادعوهم، فليستجيبوا لكم إمَّا بأنفسِهم، وإمَّا بحملِهم الرَّبَّ ﷻ على إعطائكم[6]، وسياق القول يدلُّ على أنَّ الاستجابةَ غيرُ ممكنةٍ، ولذا كانوا غيرَ صادقين، وبذلك ينتهي التَّحدِّي بالتعجيز والعجز، فعجزوا أن يثبتوا صدقَهم[7].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 431/15، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3034/6.
(2) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 634/2.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 221/9.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.
(6) المراغي، تفسير المراغي: 143/9.
(7) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3034/6.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 15 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-11-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 15 : المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26.
-1القرآن - تفاسير نحوية -2 القرآن، بديع -3 القرآن، بلاغة -4 القرآن - سور وآيات -5 القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-11-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7668393 بتاريخ 2024/01/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»